مثال البرّ

للاب لويس فؤاد اليسوعي

— ابتِ اخاف ان يؤول الامر الى ما لا تُحمد عقباه

— اركن الى قولي بني وسكّن روعك فاني اختبرت المصل

— قد يختلف المفعول احيانًا مع اختلاف الدماء المؤثر فيها المصل · تدبّر في الامر اصلحك الله والدي

هذا ما كنت تسمعهُ من عربة تسير الهوينا على طريق فرساي يركبها شيخ جليل يقال لهُ الدكتور شميت من اساتذة المكتب الطبي بباريس وعلى يسارهِ وحيده يوسف شابٌّ فتيّ الثوب يستشفّ من خلال قشرته الرقيقة دم زكي يغلي حبًّا لله ولابيهِ العزيز

وكان الدكتور يحبّ ولدهُ حبًّا عظيمًا ويعطف عليهِ لان أم يوسف توفيت وهو في نعومة اظفارهِ · فاحسن ابوهُ تربيته ولم يكفّ عن تكرار النصيحة عليهِ ويحرّضهُ على اقتباس المعارف والتشبُّث بمحامد الاخلاق حتى نشأ يوسف وشبَّ وهو يتشرَّب من تعاليم والدهِ ويقتبس من أمثالهِ الصالحة · ولمَّا أتمَّ دروسه الابتدائية وكان لهُ من العمر ثماني عشرة سنة انتظم في سلك طلبة مدرسة الحقوق ولم يمضِ القليل حتى اصبح زينة اقرانهِ ومحلّ اعجاب كل من سمعهُ واختبر عقله وآدابه

غير ان الدكتور شميت والدهُ لم يكن ممَّن يرضون بجالهم مع ما انعم الله عليهم من جزيل خيراتهِ فكان لا يزال يطلب المزيد في الرفعة والشهرة · وكان قد خصَّص أوقات فراغهِ لتجهيز مصل لم يُذكر من ذي قبل لعلَّهُ ينال بهِ صيتًا يرفعهُ في عيون سائر الاطباء ثمَّ اختبر المصل في الحيوان واتقن نجاح فعلهِ فعزم على ان يعالج بهِ المرضى · لكنَّ ولده يوسف قام يمانعهُ في مشروعهِ ويحثُّهُ على التروي في الامر قبل مباشرتهِ خشيةً من سوء العاقبة فساور الدكتور البلبال وهو لا يدري ما العمل فكان طورًا يذعن لمشورة ابنهِ لئلَّا تأتي الرياح بما لا تشتهيهِ السفن وتارةً ينبذ النصح وراء ظهرهِ مستبشرًا بحسن العاقبة · واتفق اذ ذاك ان تغيَّب يوسف عن باريس لأنَّ الدروس كانت انهكت قواهُ فالزمهُ ابوهُ بالانصراف الى شامخات جبال السويسرة قصد الارتياض بعيدًا عن

ضوضاء المدينة الباريزيّة. واستغنم الدكتور هذه الفرصة ليتمّم مرغوبه فاستتبّ لديه الرأي ان يعالج بالمصل الجديد جاك احد مرضى المستشفى

ولا تثريب على الدكتور شميت في ان يستعمل المصل المذكور حيث جرّبهُ في الحيوان وأثبت لهُ الفحص نجاح المفعول. على أنك كنت تراهُ مرتجفاً منتقع اللون ساعة قبض على المبضع ولمّح المريض بالمصل. ومن ثمّ جعل يتردد على جاك لعيادته ولستطلاقه عن حالته وكان هذا يجيب يوميًا الجواب نفسه « اني أشدّ ضعفاً مما كنت عليه امس ». فتكدّر صفو الدنيا في وجه شميت وكان قد طار الخبر في اطراف العاصمة وتجمّم من تناقُل الافواه به. وما لبث ان أدرجت قضيّة شميت امام أولي الشرع وجازت في قليل من الايام المحاكم على اختلاف طبقاتها من ادناها الى التي تليها حتى انتهت الى المجلس الأعلى فحُكم على الدكتور طبقاً للبند التاسع والثلاثين من لائحة الجنايات بالسجن الاحتياطيّ ريثما يتضح أمر جاك المريض

ولمّا تناقلت الجرائد الحكم القاضي على شميت بالسجن بلغ الامر ابنهُ يوسف وكان إذ ذاك في احدى حدائق برن يقصد النزهة فوقع على وجهه كمن أُصيب بشلل عامّ لا يعي أين هوَ ولا ما حلّ بهِ. فاتى الشرط واحتملوهُ الى المستشفى وجلس الطبيب يجرّعهُ الادوية المنعشة حتى افاق من سباته ففتح عينين واسعتين وحملق ثمّ صاح بصوتٍ أليم « اه يا والدي... والدي... » ثم غاب عن الرشد وهو يئنّ انيناً موجعاً وبينما الطبيب يتفرّس بنظره في الشاب لعلّهُ يقع على ما يهديه الى اسمه رأى يده مطبقة على رقعة فاخذها فاذا هي صحيفة الجريدة النطوية على تفاصيل قضيّة الدكتور شميت ؟ فاتضح لهُ بالمقابلة بين ما قرأهُ وما سمعهُ من يوسف عند اياب حواسّهِ ان الاب الذي تألّم لهُ الشاب هو نفس شميت المنكود الحظ. فتحرّكت ليوسف من قلب الدكتور لوز رحمة وخاف ان تمدّ هذه النكبة قواه وهو ضعيف البنية ولربّما أثّرت فيه الهموم فقصفت غصن شبابه النضر. فاخذ يلاطفهُ و يوطد رجاءهُ في خلاص ابيه حتى رجع الى رشده. وكان يوسف عارفاً بطول باع السيد لوز النطاسي البارع وما هو عليه من السؤدد واليسار فلم يتمالك ان انحنى امامه شاكراً اياه عمّا أظهرهُ نحوه من جزيل المعروف. ولحسن الطالع كان لوز من أعزّ أصحاب شميت حيث تلقيا العلوم الطبيّة تحت سماء واحدة فشقّ عليه ما ألمّ برصيفه واصبح شريكاً ليوسف فيما حلّ فقال لهُ: ان صدق

الاخاء يحثهُ كلّ الحثّ على الاخذ بيده ومساعدته فيتمثلا معاً الدكتور من موقفهِ الخطر

*

صفر القطار وطار حاملاً على جناحيهِ السيّد لور والشاب يوسف فخرق الجوّ وقطع القفار والبراري بسرعة البرق مديراً من برن قاعدة بلاد السويسرة ثمّ ينزلون ثم ديجون الى ان حطّ في باريس بعد ما ينيف عن عشر ساعات مضت على يوسف كأنها لشهر وسار الدكتور لور من وقتهِ الى المستشفى ليعود جاك المريض ويبحث في علّتهِ وطريقة شفائها

هذا ما كان من أمر الشاب يوسف ومُعيته . اما الدكتور شميت فانهُ لما حُكم عليهِ بالسجن الاحتياطي حتى الرأس مذعناً للامر القاضي عليهِ وانصرف الى السجن وهو يعثر باذيال الخيبة . فلمّا اقبل يضرب ببصرهِ في اطراف محبسهِ امتلأ قلبهُ مرارة على مرارتهِ وانهلّت العبرات من مآقيهِ كالوابل الهاطل وهو يقول: « ما اطمع قلبك يا ابن الانسان : لو كنتُ اكتفيتُ بنصيبي من العيش واذعنت لنصح ولدي لما بتّ الليلة بين جدراني هذه الغرفة المظلمة »

وبينا كانت تساورهُ اقبح صوَر القنوط واليأس جاءهُ السجّان ودفع اليهِ صحيفة عرف الدكتور من خط عنوانها ان مسطرها هو ولده يوسف فقرأ: «تجرّع والدي كأس الضيم بقلب صبور وشهامة نفس عسى فرجاً قريباً يأتيك من لدنهِ تعالى » . واما الداعي الى هذه الرسالة فهو ان السيد لور بعد ان تبيّن علّة جاك ترآى لهُ ان نجاته من الموت ليست ضرباً من المحال لانّ فعل المصل كان بقي محصوراً في الشقّ الأيمن فجعل الدكتور لور يبحث عن وسيلة لايقاف العلّة في طريق امتدادها حتّى تتوفّر لديهِ انهُ يستطاع ان يحصر الفساد الجاري في الشقّ الأيمن على شريطة ان يفتح الطبيب بدم بشر . فارتاب لور في امرهِ وتعرقلت لديهِ الأسباب . وكان قد رأى فيهِ الشاب يوسف علامات الارتباك رغماً عمّا كان يتظاهر بهِ من الهدوّ والسكينة . فجهد في الاستطلاع منهُ عما انجلى في حال جاك حتى صرّح لهُ الدكتور بالامر . فنهض يوسف منتصباً وقد أحسّ من نفسهِ قوّة في التفاني فكشف عن صدرهِ وقدّمهُ للسيّد لور قائلاً: وهل دمي يحسن لتلقيح المريض ؟

أجاب لور : أسفي على شبابك يا يوسف وكيف تعرّض جسدك البالي لامراض ربّما افضت بكَ الى الموت ؟

— ما أشهى الموت على قلبي لو ادركت بهِ خلاص أبي وخلعت العار عنهُ

— وماذا يجديك خلاص الدكتور ان متَّ انت عقيب خروجه من السجن ؟

— وايُّ لذَّة تجديني الحياة لو أهان الناس أبي وقالوا فينا ما يبقى علينا عاره الى الدهر ؟

وبالغ الدكتور في نصح يوسف حتى يرجعهُ عن مراده الّا ان ذلك لم يكن ليثني الولد الودود عن عزمه فهتف قائلًا : هيهات ان ابخل بدمي وبه اغسل الحوبة عن ابٍ محبّ بذل الروح لي دوماً ؟ لعمري ان دمي حلال في من رويت في فيض نعمته : اذيك ابتِ بالروح والجسد ولا فضل لي في ذاك بل الفضل لك اذ لولاك بعد ربّي لما سرى في عروقي دم ولا تصعّد من صدري نفَس . . . ناشدتك الله سيدي الدكتور ألّا تحرمني نعمة طالما تاقت اليها روحي

فأثّر هذا الكلام في السيّد لورتأثيرًا شديدًا فما تمالك حتى هتف : « كنتُ اظنّ المحبة الى هذا المقدار من الشهامة أمرًا خياليًّا وقد جاء مثلك مصداقًا على ما كنت لم احفل به وعلمتُ انَّ الكرم حيّ لم يمتْ حتى الان . فليكن بنيَّ ما اردت »

*

أتى على الشاب يوسف أسبوع بعد ان استخرجت الاطباء من دمه ما فتحوا به اعضاء جاك البالية فتقوّى على جراثيم الفساد الجارية فيه واخذت تسري في عروقه العافية . اما قوى يوسف فكانت في حالة من الضعف يُرثى لها فإن ما سال من دم جسده النحيل انهك قواه وتأكلت الحمّى لحمه فاصبحت حياته في خطر منذر . وكان الدكتور لورملازمًا لهُ ليلًا ونهارًا يعالجهُ بما أوتي من المهارة في صناعته غير انهُ ما عتم ان ظهرت على مثال البرّ وسمة الموت فطلب الشاب التقي ان يزوّد الأسرار المقدّسة فقبلها بوقار مردّدًا لسمعي يسوع ومريم ومن ثمَّ وجّه افكاره الى دار الخلد فكان لهُ عبارات يصف بها السماء وضيائها تسبي عقول السامعين وتحيك في قلوبهم

وكان إذ ذاك قد قدّم السيّد لور قرارًا للمجلس وقّع عليه اطبّاء المستشفى يطلب فيه اطلاق الدكتور شميت من السجن اذ تعافى جاك ورجعت اليه الصحّة فاطلقت المحكمة سراح السجين على انها حكمت عليه بغرامة قدرها الف فرنك تعويضًا لجاك عن المدّة التي قضاها في المستشفى من يوم لفحهُ الدكتور شميت بالمصل

ولما أُطلق سراح السجين اقبل السيد لور واصحابهُ معهُ يستقبلونهُ على باب المجلس

ويهنئونه فما كان أشدّ انذهالهُ لما لم يلمح ابنه يوسف بين من حضر وهو في اشتياق حارّ الى ان يضمّهُ الى صدرهِ فسأل أين يوسف ؟ ولما نكّس الجمع رؤوسهم ولم ينطقوا بنت شفة صاح الاب للحبّ بصوتٍ أليم كأنّهُ ادرك ما حلّ بفلذة كبدهِ : ناشدتكم الله اخبروني أين يوسف . فاستدعاهُ السيد لور واخذهُ على حدةٍ واوقفهُ على حقيقة الحال والدكتور يردّد بصوت يتقطعهُ الحزن : ولدي ولدي ... ومن لنا بوصف حالة ذلك الوالد المسكين لما دخل على ولده ومنتهى آمالهِ ووجدهُ على آخر رمقٍ من الحياة فاستطار فؤادهُ التياعاً واكبَّ على وجيده يوسف يقبّلهُ ويغسل جراحهُ بماء جفنيهِ وكان قد تفطّر فؤاد الحاضرين لذلك المشهد الفاجع فتقاطرت عبراتهم جميعاً وهتف شميت : اغفر ذنبي ولدي انا السبب في موتك واسمعني الكلمة الاخيرة من فيك اترى قد صفحتَ عني ... قال ثمّ اجهش بالبكاء فانقطع عن الكلام ..... اما يوسف فحرّك شفتيهِ كمن يحاول النطق فلم يقدر لكنهُ انحنى على والدهِ وقبّلهُ قبلة افادت ما طلب ... ثمّ سقط رأسه على صدرهِ واذا هو فارق الدنيا

وبعد بضعة أيام استقال الدكتور شميت من خدمتهِ وقد ادّبتهُ حكمة ابنهِ ولحكمتهُ التجارب فاعتزل في إحدى القرى المنقطعة واقام فيها ليقضي باقي حياتهِ في الصلاة والعبادة وهو يعيد في ذاكرتهِ ما حدث لهُ فترتعد فرائصهُ من مجرّد ذكر يوسف وما قاساهُ بسبب ابنهِ الودود . وكان يتردّد الى ضريحهِ حيث كتب هاتين الكلمتين « مثال البرّ »

نصرانيّة غسّان

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تتمّة)

وهذه الكتابة العربيّة المسيحيّة اوّل كتابة وُجدت من عهد الجاهليّة بالحرف العربي كتبها في أيّام الملك المنذر الغسّاني (١ شرحبيل بن ظالم احد امراء غسّان سنة ٤٦٣ ليصرى الموافقة لسنة ٥٦٨ للمسيح (٢ . وقد وُجدت سنة ١٨٧٩ في زيد كاية

---

١) قد وقع غلط في العدد الاخير (ص ٥٣٥) س ٣) حيث قيل ان هذه الكتابة « هي للملك المنذر »

٢) اطلب Waddington: *Inscript. gr. et lat. de la Syrie*, n° 2464